الـوعي بالتراث والمعاصرة في فكر رواد التنوير العربي
(قراءة مستعادة)

علي حداد حسين
مركز إحياء التراث العلمي العربي / جامعة بغداد

* على سبيل التقديم :

متى أخذ الوعي بقضية (التراث والمعاصرة) ينال حصته من انشغالات العقل العربي في وجوده الراهن ، بوصف كلاً منهما حضوراً لفاعلية ثقافية متسعة التأثير لابد من مواجهتها وتحديد الموقف منها ؟

وما الكيفيات التي تشكلت لهما في مسارات المدرك الثقافي ومنجزه الحديث في مرحلة المواجهة تلك ؟

لعل الإجابة عن هذين السؤالين هو وكد قرأتنا هذه ،لا بحدود الانشغال الممعن في ملاحقة البعد الاصطلاحي لـ (التراث والمعاصرة) بل بتحولهما إلى مشهد ثقافي متكامل الأبعاد ، يؤسس لملامح التشكيل الجديد للشخصية العربية وهي تسعى إلى تأكيد وجودها في العصر الحديث .

إن الذي يشغلنا هنا هو أن هاتين (المفردتين / الاصطلاحين) قد أصبحتا مساحة لسجال ثقافي لا حدود له ، وبرزتا قوتين فاعلتين في تشكيل الوعي وسمات الشخصية التي راحت تعلن عن منحاها في التمثل الثقافي من خلال تلقيها لهما معاً ، أو في تخيّر احدهما والانتماء المطمئن إلى آفاقه.

حدث ذلك في مرحلة تاريخية ذات طبيعة مفصلية في مسيرة تشكل الوعي العربي ، مرحلة أرهصت بقيم مشتجرة ومتداخلة ، وتطلعات غاية في التناقض والتباعد فيما تدعو إليه، وهو ما كان له فعله في رجّ مياه الواقع العربي الساكنة ـ حينذاك ـ وإرباك وعيه ، وتهيئته ـ لاحقاً ـ لاستقبال متغيرات كبيرة في مختلف مناحي تكوينه التي تؤشر حصته في الوجود الإنساني الحديث .

لقد أطلقت على تلك المرحلة مسميات عدّة فهي : عصر النهضة ،أو مرحلة الإحياء ،أو اليقظة الحديثة ، أو العصر الحديث ، أو مرحلة التجديد ، وكل تلك المسميات قد تم تداولها بإطلاق عام يوحي بترادفها الدلالي ، من دون تلمس الحدود المفهومية الدقيقة التي يحملها كل منها وينماز بها عن سواه .

وكان لتلك المرحلة رجالها الذين تمثلوا وعيها ، واستوعبوا ـ على قدر ما أتيح لهم ذلك ـ متطلبات المواجهة الحضارية ، فسعى كل منهم إلى تحديد موقفه من قضية التراث والمعاصرة في حدود ما ناله من استيعاب لقيمهما ، وباتساق مع ما استقرت عليه مقومات شخصيته الثقافية، جاعلاً من ذلك مثابة لطرح مشكلات الواقع العربي،وعلى مختلف الأصعدة، وفي مختلف مظاهر الحياة العربية ،ابتداء بالفكر السياسي ، ومروراً بالمجتمع وقضاياه ، وانتهاء إلى واقع الأدب والفن الحديثين.

(١)

مثّل لقاء العرب – في القرنين الماضيين – مع الآخر – الغرب – صدمة حضارية أقلقت الوعي والحواس وتركتهما نهباً لأسئلة لم يكن ليتاح للعربي أن ينشغل بها – بهذا العمق والانشداد قبل ذلك اللقاء الدرامي المثير .

لقد : " استيقظ العرب في أواخر القرن الثامن عشر من رقدة طويلة على قعقعة سلاح وضجة أصوات مقتحم جديد لحدود بلادهم التي ظلت موصدة قروناً عدة على أشد أنواع الجهل والتخلف الحضاري الذي فرضته السيطرة العثمانية ، وما سبقها من أشكال الهيمنة الأجنبية " (١) .

ولم يكن الغازي الجديد ـ بمختلف هوياته الغربية ـ قد جاء ليفتح كوّة يرى العرب من خلالها النور ، بل ليفرض سطوة أعتى واستعماراً أقسى ، بما لديه من قوة عسكرية ، وما قطعه من أشواط في التطور والحضارة ، جعلته يسعى باحثاً عن مناطق نفوذ جديدة له .

ومع أن هذا المحتل قد جاء بأشد أساليب الاستعمار وأكثرها استبداداً إلا أنه حمل معه كذلك ـ وعلى نحو لعله لم يدرك آثاره المضادة ـ بعض مظاهر حضارته التي ما كان للعرب سابق إطلاع عليها في مرحلتهم تلك [٢].وقد شرع ذلك الإطلاع العقل العربي ، وفي مختلف آفاقه وانشغالاته ، لقلق معرفي لا حدود له ، حيث لم يجد مثقفو تلك المرحلة في واقعهم ، وبمختلف أوجه نشاطه الإنساني ، ما يستندون إليه ويطمئنون إلى متحققه ، ومن هنا تلجلجت قناعاتهم وأرهص وعيهم ـ وهو يبحث عن البدائل الأفضل ـ في تأمل مختلف التجارب ، ليطمئن كل منهم إلى ما يراه مناسباً ، فيعلنه سياقا ًلوعيه وتمثلا منجزاً فيما يقدمه من تجارب فكرية وأدبية .

وهكذا ، فقد أثيرت أسئلة لم يسبق تداولها ، وبرزت مسميات واصطلاحات لم يسبق تداولها ، كان الأكثر شخوصاً من بينها ما تبلور في محورين مركزيين من الوعي والطرح الفكري والتجارب والانشغالات ، هما(التراث والمعاصرة)[٣] ، اللذين التقت عندهما وتفرعت منهما كثير من القضايا التي تتعلق بالأصالة ومآل تشكيل الشخصية القومية من خلالها ، والعصرية وآفاق الاستجابة لها ، ليتسع ذلك فيشمل مجالات الحياة المختلفة : السياسية والاجتماعية والثقافية: " ولتطرح جملة مسميات تأخذ أبعادها في البحث الجاد عن تحديد سمات الشخصية العربية ، من خلال تبيان موقفها منها : كالتجديد والمعاصرة ، والأصالة ، والحداثة ، والتحديث" [٤] ، وكلها تكاد تلتقي في حد الانشغالات التي أثارتها قضية (التراث والمعاصرة).

(٢)

أمسى تلقي ما جاء به الغرب المستعمر من ثقافة ومعارف وعلوم ومسالك مغايرة في الحياة الاجتماعية والسياسية مثار أسئلة تلحف في البحث عن مصدر تفوقه وقوته ، والمقومات والعوامل التي حققت له ذلك الإنجاز الحضاري الباهر، وبما صنع للبشرية عصراً جديدا وصفه واحد من رجال النهضة في العراق هو(معروف الرصافي) بأنه: " عصر مدنية راقية وعلم واسع وآثار باهرة ، وبدائع زاهرة ، ومخترعات عجيبة، ومكتشفات غريبة . كما إنه عصر نفوس محررة ، وأفكار مطلقة " [٥].

ولعل الأهم من بين تلك الأسئلة – والذي سيؤسس لمرحلة جديدة في الوعي والمجادلة الفكرية العربية الحديثة ـ هو ذلك المتعلق بأسباب تخلفنا ـ نحن العرب ـ عن الغرب ومنجزه الحضاري ، والكيفيات التي يمكن لنا من خلالها أن نلحق به ونجاريه في إنجاز مماثل يشير إلينا، وهو ما استدرج بعضاً من مثقفي تلك المرحلة لتقديم أفكارهم حوله [٦] .

لقد تأسست على طبيعة الإجابة المقترحة مواقف عدّة ، مثّل كل منها مسعى

فكرياً وممارسة معرفية وثقافية لها حدودها من حيث الرؤية ووسائل تمثلها ، وما يتحقق لها ، وبما وضع في ثلاثة اتجاهات أو إجابات :

الأول : وكان يرى أن العودة إلى تراثنا وما كان لأسلافنا من عطاء حضاري خلاق هو ملجؤنا وسبيلنا إلى مواجهة غول الحضارة الغربية الوافدة إلينا ومنطلقنا للحفاظ على هويتنا القومية التي يسعى الغرب والمتمثلون لثقافته من العرب للنيل منها ، إن في عودة العرب – طبقاً لهذا الرأي – إلى تراثهم ـ كل تراثهم ـ ما يحفظ وجودهم ويقيهم استلاب الحضارة الغربية [٧].

وعلى النقيض من ذلك ذهب أصحاب الموقف الثاني إلى الزراية بالتراث، وتحميله مسؤولية مايعانيه العرب في راهنهم الإنساني : " فعندما تخمد الحياة أوتهمد في الشعب يهفو إلى الماضي ، وتثير ذكرياته فيه اشتياقاً كما لو كان يشتاق الموت ، لأن في الماضي كثيراً من سمات الموت ، بل هو موت . وهذا الماضي يشيع في نفوس أبنائه عقائد ، في حين أن المستقبل يطالب بالمنطق والعقل والتزام الحقائق " (٨) ، ومن هذه القناعة فقد سعوا لاحفين إلى القول بوجوب الانضواء التام – وبدون شروط – إلى أفق تلك الحضارة الوافدة كونها أرقى ما تحقق للبشرية – في عصرها الراهن – من إنجاز معرفي وعلمي وثقافي حتى أن المرء – طبقاً لما رآه العقاد ـ ليزدهي بنفسه حين يضعها في معارف تلك الحضارة وآدابها (٩) . وعبر هذه الرؤية فقد صار التوسل إلى الغرب ثقافياً والتطلع إلى معارفه وادعائها ـ عند كثير من مثقفي تلك المرحلة ـ قريناً لمفهوم المعاصرة والتجديد ، والشخصية العصرية التي عكسها المسعى الحثيث لمن كان منهم ينظم الشعر ـ ولعلهم كلهم كانوا كذلك ـ أن ينال لقب (الشاعر العصري) الذي عرّفه الزهاوي بأنه: " من يقول الشعر بدواع عصرية أكثرها اجتماعي "(١٠) .

لقد مثل الموقفان الموقفان السابقان حالة من الانسحاق والقلق في مواجهة الغرب وحضارته ، أودت بهما إلى مصادرة الحاضر والبحث عن حلول في خارجه بهروبية واضحة إلى – الأسلاف – في الموقف الأول وإلى – الغرب – في الموقف الثاني . غير أن موقفاً ثالثاً نال حظه من الموضوعية ، والتمثل المتوازن لاحتياجات الواقع ومعالجاتها ، برز في مناقشة ما يدعو إليه كلا الموقفين السابقين ، إذ أن العودة إلى منجز الأسلاف الحضاري وتمثله كله غير قادر على أن يمنحنا إمكانيات كافية لمواجهة الحاضر واشتراطات العيش فيه ، كما أن الانضواء تحت إهاب الحضارة الغربية بكل ما فيها سيكون مسخاً تاماً لوجودنا وهويتنا:" فليس كل ما قيل في الأزمنة الغابرة قديماً ، ولا كل ما قيل في هذا العصر جديداً، فإن فيما قيل في تلك الأزمنة ما هو جديد في كل عصر " (١١). ومن هنا دعا أصحاب هذا الموقف إلى أفق من التوازن بين ما نتمسك به من تراثنا ونحييه ونتواصل مع قيمه ، وما نستجلبه من حضارة الغرب ونجعله في بنية معرفية خاصة بنا نحن العرب(١٢).

لقد أمسى هذا الموقف الوسطي(١٣) أكثر التيارات تأثيراً في الواقع الثقافي للأمة العربية فيما طرحه من أفكار وأنتجه من قراءات ودراسات، لتثار جلية قضايا من مثل : التراث والمعاصرة ، ومصطلحات التجديد والتحديث وسواها ، مما فتحت باباً واسعاً للدرس الثقافي والمعرفي الذي أسس للنهضة الحديثة في تاريخ العرب الحديث ، وهي تعالج قضايا فكرية متسعة ، وتعيد قراءة التراث على وفق منهجيات جديدة أتيح لبعض المفكرين والأدباء العرب الإطلاع عليها بلغاتها الغربية ، وسعوا إلى توظيف آلياتها ومناهجها في قراءات جادة لكثير من جوانب تراثنا العربي في مسعى للمواءمة بينه وما أنتجه العقل الغربي من آفاق الدرس المنهجي الجاد(١٤) . وقد حقق ذلك كله نوعاً من الثقة بالشخصية العربية المعاصرة ، وإمكاناتها في تأسيس مساحة من الحوار مع الآخر والاستفادة مما أنجزه في تشكيل ملامح وعي عربي مغاير سواء أكان ذلك في مقارنته مع التراث وقيمه أو مع التشكل الخاص بالغرب وحضارته وقيمه.

(٣)

كان البحث عن الوسائل والسبل التي تحقق للعرب مجالات الارتقاء واللحاق بركب التطور الحضاري الحديث هو ما وضعه أولئك المثقفون المتنورون نصب أعينهم ، وفي مختلف مجالات الحياة التي أتيح لوعيهم أن يتأملها ، ويبحث لها عما يناسبها من إجابات.

لقد بدأ أن المواجهة الأولى التي تصدى لها معظم أولئك المثقفين هي مع ما وجدوه في النظام السياسي لبلدانهم القائم في أغلبه على الهيمنة الاستعمارية أو على مؤسسات وأنظمة مرتبطة بها وجوداً ومصالحاً وفكراً ،

وهو ما حدا بمعظمهم إلى التعبير الصريح أو المبطن في كتاباتهم عن مواقفهم لمواجهة ذلك الواقع والدعوة إلى تغييره أو إصلاح بعض جوانبه على أقل افتراض ممكن (١٥)

وحين تفضي بهم قراءاتهم إلى ما عليه الأحوال الاجتماعية لبلدانهم فإن مقادير ضخمة من المشكلات هي ما تتوقف عنده تلك القراءة ، لعل أبرزها في معالجاتهم ما كانت عليه الحالة التربوية حيث انتشار الجهل والأمية ، والتخلف في أساليب التعليم ومستلزماته ، الذي لا يتيح مجالاً حتى للتفكير بمقارنته مع ما هو عليه أمره في الغرب . وكان حرمان النساء منه هو أكثر جوانب هذا التخلف التربوي وأشد صوره إيلاماً ، بما دفع أحد شعراء تلك المرحلة ليصرخ :

من لي بتربية النساء فإنها   في الشرق علة ذلك الإخفاق(١٦)

أما في المجال الثقافي فلكون معظم أولئك المثقفين هم دعاته والمنتمون إلى قيمه ، والقادرون على إنجاز مساحة من الحركة الفاعلة فيه نحو التطور ، فقد نشطوا – وبحدود قدرات كل منهم – إلى تأكيد حضورهم المؤثر فيه ومن خلال وسائل وممارسات متعددة رأوا فيها ما يحقق لهم طماح الإنجاز فيه.

(٤)

تنبه رواد النهضة العربية إلى دور (الصحافة) وما يمكن أن تضعه بين أيديهم من وسيلة جديدة لتقديم أفكارهم ونشرها على قدر أكثر فاعلية واتساعاً من الوسائل التقليدية التي كانت متبعة في كثير من المجتمعات العربية ، كالخطابة مثلاً ، التي كانت وسيلة (شفاهية) لها مجالها المحدود في تقديم الأفكار ومساحة التلقي لها.

وكانت تلك الشفاهية سمة للثقافة العربية – في الغالب عليها حينذاك – وهو ما كرس الأمية ، وعززها وسيلة للتناول الثقافي بين أفراد المجتمعات العربية في مقاهيهم ومجالسهم ومنتدياتهم ، حتى ليمكن وصف تلك الثقافة بـ (الشعبية) التي أدى بها التداول الشفاهي والمباشر إلى محدودية ما ترسخه من القيم ، وافتقاد التراكم ، وتواضع فرص بناء مشروع فكري مؤثر ، بحكم أن الغالب على مآلها هو النسيان والتلاشي والخضوع لمتغيرات الظرف المكاني ونوعية المتداولين لها.

وحين أصبح للصحافة حضورها في الواقع الثقافي العربي فإن تغييراً مشهوداً يمكن رصده في ما تحقق من إنجاز ثقافي متعدد المجالات ومتسع مساحة التلقي والتأثير .

كما كان للصحافة دورها في تغيير أساليب التعبير وطرائقه وبما يناسب مقتضيات الأسلوب العصري ، وذلك ما رصده الدكتور (علي الوردي) حين قال " أصبح الناس في حاجة إلى أسلوب عصري بسيط ، يضع الألفاظ على قدر المعاني ، فهم – أي الناس – يريدون أن يفهموا الأمور الجديدة بسرعة ... ومما ساعد على انتشار هذا الأسلوب ظهور الصحافة ، فالصحافي يريد أن يصل بكتابته إلى أكبر عدد من القراء ، ولا يهمه بعد ذلك أن يكون أسلوبه مسجوعاً أو مزركشاً " (١٧) .

لقد أفضت الصحافة بالأفق الثقافي إلى أن يتسع بالكتابة والنشر والتداول وفي شتى مجالات المعرفة ، وأسست لقيم جديدة وأدت به ليناقش موضوعات عصرية ووقائع راهنة ، وينجز أفقه الجديد . ولعل تلك الرؤية واليقين الذاهب إليها هي ما دعت معظم الأدباء والمثقفين العرب – حينذاك – إلى تبني الصحافة والكتابة فيها ، بل وسعي كثير منهم لأن تكون له صحيفته أو مجلته التي يتولى إصدارها (١٨) ، ليتم – لاحقاً وعند أغلبهم جمع تلك المقالات والكتابات المنشورة في هذه الصحيفة أو المجلة في كتاب أو كتب متعددة ، تفصح عن المشروع الثقافي والفكري لهذا الكاتب أو ذاك عبر تراكم أفكاره واجتماعها على رؤية فكرية متوحدة (١٩) وبذا أصبح

الكتاب – متواتراً مع الصحيفة والمجلة – واحداً من سمات تلك المرحلة ، والإعلان عن أفاقها الجديدة والمتطورة.

(٥)

يغلب على معظم المدن العربية وصفها بأن كل منها ما هي إلا قرية كبيرة ، بما تحتكم إليه من تكوينات بشرية وسلوكيات مستجلبة – في الغالب عليها – من البيئة القروية واشتراطاتها القيمة والسلوكية ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن كثيراً من المدن العربية لها وجه حضاري جديد – أيا كانت مساحته – ولاسيما في العواصم التي تتركز فيها كثير من آفاق الحياة العصرية ومن خلال جوانبها السياسية والاقتصادية والتعليمية ، وأساليب الحياة ومظاهر العيش ووسائله، كالذي تحقق للقاهرة وبغداد وبيروت ودمشق.

وربما تملكت أهل تلك المدن الرغبة في مجاراة المدينة الغربية والتشبه ببعض ما فيها من مظاهر عمران وسبل تحضر ، ووسائل حياة عصرية في التعليم والثقافة ووسائل الاتصال الإعلامي وسواها من الظواهر والممارسات التي لا يتكرس حضورها إلا في المدن.

وتنعكس تلك الفعاليات متعددة الأوجه في تشكيل الهوية الاجتماعية والثقافية لساكني المدن ، وتصنع حدوداً فئوية وتكوينات بشرية مختلفة التوجهات والانشغالات ويتحقق للفئة المثقفة – التي ربما يحلو البعض وصفها بأنها طبقة – وجود فاعل ومؤثر في المدينة أكثر من أية بيئة أخرى ، بحكم ما تتوافر عليه من مظاهر وممارسات إنسانية ووسائل تعبير تتيح للمثقف أن يعلن عن حضوره فيها أكثر من أية فئة اجتماعية أخرى في المدينة ، لطبيعة الوعي المتاح وأفق الانشغال الفكري ، ومساحة التوجه وقيمه.

عبر هذه الرؤية فقد تحقق للفئة المثقفة العربية أن تشغل دورها البارز والمؤثر في مجتمع المدينة ، وأن تصبح هي الممسكة بمقدراتها الثقافية – والتربوية أيضاً – في مسعى من تلك الفئة لتشكيل هوية حضارية وفكرية جديدة ، تؤسس ملامح الشخصية العربية ، وهي تواجه واقعها الجديد وقيمه المغايرة لما كان لها في المراحل السابقة قبل مواجهة الغرب وحضارته . لقد حقق أولئك المثقفون وجودهم الباذخ في مدنهم ودورهم الذي لا يمكن لها أن تستغني عنه ، وصار لهم في الغالب على وجودهم - صوتهم وحضورهم بوصفهم فئة اجتماعية لها سمات تشكلها بإزاء فئات اجتماعية مدينية أخرى : السياسيين ، التجار ، رجال الدين ، شيوخ القبائل ... وسواهم – وتحقق لصوتهم وفعلهم حضورهما ، والذي يحسب له حسابه ، بما هم عليه من وعي ومقدرة عقلية نضيجة ، وإمكانات لتدوين ذلك كله ، وتسخير أقلامهم وصحفهم لتقوله وتعلن عنه.

(٦)

حمل معظم أولئك المثقفين مشكاة الدعوة إلى التنوير والإصلاح الاجتماعي والثقافي – بمختلف مجالاتها – جاعلين من أنفسهم (المثال) والتجربة المعلنة عن قيمها وما تنادي به ، فكرسوا - ليس الوعي وحده بل وجودهم الشخصي - للإفصاح عن مشاريعهم النبيلة في توجهها نحو مجتمعاتهم والرغبة في الارتقاء بها إلى ما هي جديرة به من التطور والتقدم وآفاق التحضر ومظاهره . إن تأملاً لتفصيلات حياة كل منهم في مراحلها المختلفة وما واجهته وأنجزته يمكن عده تسجيلاً دقيقاً لذلك الوعي التنويري الذي احتكم إليه كل منهم في ممارسته والمعلن من طرحه الفكري ، ومنافذ تشكل تجربته الإنسانية من خلاله . وإذا كان في مسعاهم للكتابة والنشر في مختلف وسائلهما جانباً من تجسيد هذه الرؤية فإن ما يكمله ويعمق صدق النوايا فيه وجود جملة ممارسات ثقافية بذلوا جهداً كبيراً فيها ، لعل منها الرحلة في طلب الاستزادة من المعرفة ، والدراسة المنهجية الجادة في غير بلدانهم ، ولاسيما حين ذهب كثير منهم إلى بلدان الغرب وسواها للإطلاع والاستزادة المعرفية [٢٠].

كما اجتهد أكثر من واحد بينهم إلى تعلم لغات الغرب والإطلاع على ثقافته ومعارفه وآدابه . وكان مسعى كثير منهم لتحقيق نوع من اللقاء مع سواه من المثقفين الذين يشاركونه الوعي والاهتمامات ذاتها دافعة لخلق تجمعات فكرية أو أدبية معينة ، يكون لها مريدوها ، وصحيفتها ، وما يمكن لها أن تشكله من جماعات وأندية فكرية (٢١) لتكون تلك سمة دالة على وعي جماعي ، وتلمس حصيف لما يمكن من خلاله تجاوز النزعة الفردية التي طالما احتكمت إليها الثقافة العربية الموروثة وتمثلها ـ غالبا ـ الأديب العربي في عصوره الماضية .

(٧)

اهتم رواد النهضة جميعهم بالأدب وفنونه على نحو كبير ، جاعلين منه واحدة من وسائل تقديم رؤاهم الجديدة إلى مجتمعهم ، وهكذا فقد كتب معظمهم القصة والرواية والمسرحية والمقالة الأدبية،وذلك كله مما يعد إنجازاً أدبياً جديداً تسجل لهم ريادته .أما الشعر فلعلهم جميعاً وبلا استثناء قد مارسوا نظمه ، وبحسب قدرات كل منهم وموهبته . وفي علاقتهم بالشعر يمكن لنا أن نتلمس جانبا لافتاً للاهتمام من قضية (التراث والمعاصرة) ، لقد كانت كثير من موضوعات قصائدهم تذهب إلى تأكيد الوعي بالتجديد والإعلان عن أفكاره والانشغال بموضوعاته ، ولكن ذلك كان يأتي عندهم ـ على مستوى البناء الفني ـ بالقوالب الموروثة من حيث الأوزان والقوافي ، مع أنهم قدموا كثيراً من الأفكار الداعية إلى تجيد بنية الشعر العربي ، ويبدو أن ذلك لم يكن ليشكل عندهم حالة من التوزع والتناقض ـ كما تصورت الأمر كثير من الدراسات التي تناولت ذلك ـ فلعل في الأمر ما يعكس حقيقة وعيهم بالتأسيس الذوقي الذي ترسخ في الذات العربية ، وعلى مر العصور، إذ لم ليخرج الشعر العربي في معظم مراحل تطوره عن البناء الموسيقي الذي أقيم عليه أصلاً حتى أمست تلك موسيقى الشعر العربي سمة إيقاعية وجمالية خاصة بها، ولعل الزهاوي كان يعبر هذا الإدراك الموضوعي حين قال : "إن لكل قوم إحساساً خاصاً بهم وأسلوباً... وإن لكل حجر من أحجار الوطن ، وكل أثر من آثاره دخلاً في توليد هذا الإحساس ، فلا يمكن أن نجده في خارج بلاد العرب " (٢٢)

(٨)

هكذا – ومن خلال الوعي بالجديد وتهيئة مستلزماته ، ومعه التمثل المدرك لقيم التراث الحية ، والمعلنة عن كينونتنا الإنسانية– بدأت طلائع المشروع التنويري العربي تعلن عن نفسها – فكراً وممارسة – ، فلقد استوعب رواده ماتهيأ لوعيهم وانشغالهم الثقافي أن يقاربه من الكشوفات المعرفية الجديدة ، وأطالوا الوقوف عند متحققها ـ في بلدانها ـ ليضعوها ضمن وسائلهم في الدعوة إلى التغيير، : " وحينئذ تبلورت عنها نزعة نقدية ودعوة إلى الفكر الحر ، في محاولة منهم لتوطين الثقافة في الزمان والمكان " (٢٣) . حصل ذلك كله من دون أن تغيب عن البال – بال أولئك المثقفين التنويريين وأنصارهم – جسامة المهمات وصعوبة المسالك ، وكثرة التحديات والقوى التي ستهب لتقف في وجه مشروعهم ، لتعيق حركته ، وتبدد ما استطاعت من منجزاته . ولتعيد العقل العربي – ومن خلال فشل كثير من المشاريع السياسية والاجتماعية – إلى ما يقترب من مثابة الانطلاق الأولى ، وقلق السؤال الأول ، وضبابية الإجابة وانفراط اليقين الممسك بقيمها . حدث هذا ويحدث ، ولأكثر من مرة ، حتى وقتنا الراهن.

الهوامش

(١) علي حداد ، أثرالتراث في الشعر العراقي الحديث ، بغداد ، ١٩٨٦، ص١٧.
(٢) لعل هذا الجانب هو الذي أدى بمفكر مناوئ للاستعمار مثل (كارل ماركس) أن يرى في استعمار بريطانيا للهند جانباً إيجابياً تمثل في إدخالها سياق التاريخ الغربي المتطور (ينظر ميجان الرويلي وسعد البازعي ، دليل الناقد الأدبي ،

بيروت ، ٢٠٠٠ ، ص٩٢ ، وينظر مصدره) .
(٣) نرتضي للتراث تعريفه بكونه : " ما تراكم خلال الأزمنة من تقاليد وعادات وتجارب وخبرات وفنون في شعب من الشعوب ، وهو جزء أساس من قوامه الاجتماعي والإنساني والسياسي والتاريخي والخلقي ، يوثق علاقته بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التراث وإغنائه " (جبور عبد النور ، المعجم الأدبي ،بيروت ١٩٧٩ ، ص ٦٣) .
أما المعاصرة فنذهب مع (س أم بورا) في قوله إنها : " تبدو كلمة غامضة ، فهي ربما لا تعني بصورة معينة كل خصائص العصر بل تلك التي تميز العصر الحالي عن ماضيه" (التجربة الخلاقة ، بغداد١٩٧٧ ، ص١٩) . وقد فهمت غالباً ـ وعلى نحو تأكد خطؤه ـ أنها إنكار للتراث، والتركيز على الحاضر ، والارتباط بركب حضارة المجتمعات الصناعية .
(٤) حداد ، ص ٢٤ .
(٥) الرصافي ، جريدة الحرية ، العدد ١ـ٢ . وقال واصفاً إياه شعراً، وبما يشبه في نبرته البيان الذي يلقي من خلاله بحجته على أبناء عصره ومجتمعه :

أيها الناس إن ذا العصر عصر العلم والجد في العلى والجهاد
عصر حكم البخار والكهرباء والماكينات والمنطاد
بنيت فيه للعلوم المباني وأقيمت للبحث فيه النوادي
(الديوان ١: ٢٥٢)

وكان رائد تنويري عراقي آخر،هو جميل صدقي الزهاوي قد صرح بذلك في شعره كثيراً ، كقوله :

إنّا بعصر قد أبان رقيه والناس غاصوا في البحار وطاروا
(الديوان، ص ٤٤)

(٦) فقد نشر(شكيب أرسلان) كتابه (لماذا تأخر العرب والمسلمون) في العام١٩٣٠ م، وتبعه رجل الدعوة إلى التنوير في اليمن (محمد علي لقمان المحامي) فأصدر كتاب (بماذا تقدم الغربيون) في العام ١٩٣٢م، ليكون رداً فيه كثير من الموضوعية على ما كتبه أرسلان الذي أشاد بكتاب لقمان في تقديمه له .
(٧) لعل مصطفى صادق الرافعي خير من مثل ـ في تلك المرحلة ـ موقف رفض الثقافة الغربية ، إذ كان من أبرز المدافعين عن التراث العربي والإسلامي ، فهو يرى أن الاهتمام بحضارة الغرب وثقافته دعوة للزراية بتراث العرب منذ أن كان لهم شعر وبيان ، وحض على النيل من لغة القرآن . وحضارة الغرب ـ طبقا لرأيه ـ لم تعد من الإنسانية في موقع الألوان والتحاسين ، فقد غمر شرها وكثر أذاها.(ينظر : تحت راية القرآن ، ص٣٥٨).
(٨) سلامة موسى ،الأدب للشعب ،القاهرة د. ت، ص ١١.
(٩) ينظر : غالي شكري ، العنقاء الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص٨٥.
(١٠) رفائيل بطي ، سحر الشعر ، مصر ١٩٢٢، ص٧١).
(١١) الزهاوي ، مجلة الإصابة، بغداد ١٩ ، ص ٣٦.
(١٢) لعل (رفاعة رافع الطهطاوي) كان من بين أوائل الذين تمثلوا ذلك الاتجاه ، فهذا الشيخ ـ الذي تمسك بزيه الأزهري وهو في فرنسا مع البعثة التي أرسلها (محمد علي باشا) لدراسة العلوم العسكرية ـ قد عاد إلى مصر حاملاً معه دعواته الواثقة إلى التغيير ، ففي السياسة رأى الطهطاوي في فرنسا نواباً يمثلون الشعب ، ويدافعون عن حرياته وحقوقه، ولما عاد إلى مصر تحدث عن مجلس النواب معجباً. وفي المجال الاجتماعي دعا إلى العناية بتعليم الفتاة وآدابها ، ولم تكن في مصر يومئذ مدرسة للبنات. وفي الأدب ـ والشعر خاصة ـ فقد سعى إلى إدخال أساليب جديدة أقتبسها من الشعر الفرنسي ، ولعله من أوائل الذين نظموا شعراً للأطفال .وبدلاً من أن ينظر إلى دعواته تلك بشيء من الاهتمام والتقدير فقد ناله ما ناله بسببها!! . (ينظر :حداد ،ص١٩ ، وتنظر مصادره) .
(١٣) أ طلق (عزيزالعظمة) على هذا الاتجاه وصف (الشبه سلفية) فهي ـ على ما رآه فيها:
" تتوخى الحداثة بصورة (عضوية) زمانياً، أي بشكل يكون بالإمكان فيه تمثل الماضي برمته أو بعناصر منه ، دون الالتفات للانقطاع الزماني الذي يفصلنا عن التراث ... فهي تستشرف وضعاً ماضياً بعد قطيعة معه استشرافاً معرفياً، آملة أن تكون هذه المعرفة وسيلة الإمساك بعنان هذا الماضي أو تلك العناصر منه التي تترى صيرورتها حاضراً ... بهدف جره نحو الحداثة . وشبه السلفية تفترض فعلاً راهناً لعناصر من التراث تختارها حسب مشاربها من الحداثة " (التراث بين السلطان والتاريخ، بيروت ١٩٩٠، ص١٤٧) غير أن ذلك لا يمنع عنده من القول بإيجابية ما تصنعه من صلة بالتراث .
(١٤) ذلك ما فعله (طه حسين) في دراسته للشعر الجاهلي على وفق منهج الشك الديكارتي ، وما فعله (العقاد) في دراسته عن بعض الشعراء العباسيين على وفق المنهج النفسي . ثم ما فعله هو وأصحابه من (جماعة الديوان) في نظرهم إلى شعرمرحلتهم. ونظير ذلك ما نجده عند الزهاوي والرصافي في تفسيرهما لبعض الظواهر الاجتماعية والثقافية على وفق نظرية دارون في النشوء والارتقاء . (ينظر : على حداد ، منطق النخل ،دمشق٢٠٠٨م، ص١٧ وما بعدها .)
(١٥) يمكن الوقوف عند كتابات : علي عبدالرازق ، وعبدالرحمن الكواكبي

وقبلهما رفاعة الطهطاوي في مصر . وتمثل كتابات الزهاوي والرصافي الشعرية والنثرية في الاتجاه ذاته

(١٦) حافظ إبراهيم ، الديوان ، بيروت ، د.ت ، ١ : ٢٨٢ .

(١٧) د. علي الوردي ، أسطورة الأدب الرفيع ، بغداد ، ١٩٧٥، ص٢٢٤.
ويرى أحد الباحثين " أن تطور الصحافة والقصة بصورة متوازية في بلدان عربية وغربية أيضا حيث شكلت وسائل الإعلام المطبوعة أساس انتشار القصة القصيرة والمقالة وسواها " (جونتر أورت ، دراسات في القصة اليمنية القصيرة ، صنعاء ، ٢٠٠٤ ، ص١٤).

(١٨) أصدر (أحمد حسن الزيات) مجلة (الرسالة) و(طه حسين) مجلة (الكاتب) وفي العراق أصدر (الرصافي) صحيفته (الأمل) وفعل (الزهاوي) الأمر ذاته فكانت له صحيفته (الإصابة) . وفي اليمن قام (أحمد الوريث) بإصدار مجلة (الحكمة اليمانية) عام ١٩٣٨م . وأصدر (محمد علي لقمان) صحيفة (فتاة الجزيرة) عام ١٩٤٠م .

(١٩) يمكن التمثيل له بما فعله طه حسين في كتابه (حديث الأربعاء) وكثير من كتب العقاد ، وما ظهر لاحقا من مؤلفات للزهاوي والرصافي ومحمد مهدي البصير ،وكذلك بعض كتابات محمد علي لقمان في اليمن .

(٢٠)) سافر الطهطاوي إلى فرنسا . وفعل الأمر ذاته أحمد شوقي وطه حسين ومحمد حسين هيكل من مصر ، ومحمد مهدي البصير من العراق ، وأقام الرصافي في الأستانة مدة . وذهب محمد علي لقمان إلى الهند وأوروبا منذ وقت مبكر .

(٢١) من مثل جماعة الأدب المهجري ، وجماعة الديوان ، وجماعة أبولو وسواها من التجمعات .

(٢٢) بطي، ص ٣٢

(٢٣) سعيد الغانمي ،مئة عام من الفكر النقدي ، دمشق٢٠٠١م ، ص٧٥ .